شفاعة محمد ﷺ[١]

جاءني من الأستاذ السيد حسن قاسم مدير مجلة «هدى الإسلام» كتابٌ يشعرني فيه بالعزم على إصدار عدد ممتاز من المجلة لذكرى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام، ورجا مني أن أكتبَ كلمةً في ذلك. ولكن هذا الكتاب بلغني بآخرة من الوقت، في حال تراكم أشغال بين يدي. ولولا أني أغتبطُ بالمشاركة في هذا العمل المبارك، لَلُذْتُ بالاعتذار.

وقد تذكرت أنِّي كنتُ وعدت على صفحات مجلة هدى الإسلام أن سأكتب في حديث: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»،[٢] إجابةً لسؤال الأستاذ حسن إبراهيم موسى الذي أرجأته منذ مدة. فقلت: هذا واجبُ الوفاء قد أظل زمانُه وأقام، ورأيتُ هذا البحثَ جديرًا بالتحقيق والتحرير لتعلقه بالسيرة وبأصول الدين.

معنى الشفاعة:

الشفاعةُ توسُّطُ سيِّدٍ أو حبيب أو ذي نفوذ لِمن يملك عقوبة أو حقًّا بأن يعدل عن الأخذ به، وقد كانت عند العرب في الغالب من شعار الود. وفي الحديث: «قالوا هذا حرِيٌّ إن خطب أن يُنكَح، وإن شفع أن يشَفَّع».[٣]

---

(١) لَم يتيسر لنا الاطلاعُ على عدد مجلة «هدى الإسلام» الذي نُشِرَ فيه هذا المقال، وقد اعتمدنا في ضبط نصه على كتاب «تحقيقات وأنظار».

(٢) سنن الترمذي، «أبواب صفة القيامة»، الحديث٢٤٣٥-٢٤٣٦، ص٥٧٩؛ السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث: سُنَنُ أبي دَاوُد، نشرة بعناية محمد عبدالعزيز الخالدي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠/ ١٩٩٩)، «كتاب السنة»، الحديث٤٧٣٩، ص٧٤٦.

(٣) جزء من حديث سهل بن سعد الساعدي. صحيح البخاري، «كتاب النكاح»، الحديث٥٠٩١، ص٩١٠-٩١١؛ وانظر كذلك «كتاب الرقاق»، الحديث٦٤٤٧، ص١١١٩؛ سنن ابن ماجه، =

وفي شفاعة الحبيب، قال الشاعر:

وَنُبِّئْتُ لَيْلَى أَرْسَلَتْ بِشَفَاعَةٍ ... إِلَيَّ فَهَلاَّ نَفْسُ لَيْلَى شَفِيعُهَا[١]

شفع الشعراء عند الملوك لِـمَا للشعر من النفوذ: شفع علقمة الفحل عند الملك عمرو بن هند في أخيه شاس وأسرى من قومه، ولم يتوسل له إلا بكونه نزيلاً في بلاده غريبًا عن قومه، فقال:

فَلاَ تَحْرِمَنِّي نَائِلاً مِنْ شَفَاعَةٍ ... فَإِنِّي امْرُؤٌ وَسْطَ الْقِبَابِ غَرِيبُ[٢]

وقد تُطلق الشفاعةُ مجازًا وتسامحًا على الوساطة في الخير ورفع الدرجة. ومنه قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء:٨٥]، وقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «اشفعوا فلتؤجروا، وليقضِ الله على لسان رسوله ما شاء»،[٣] وقول دعبل الخزاعي:[٤]

= نشرة بعناية صالح بن عبدالعزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ (الرياض: دار السلام، ١٤٢٠/ ١٩٩٩)، «كتاب الزهد»، الحديث ٤١٢٠، ص٦٠١.

(١) البيت هو الأول من مقطوعة من بيتين في حماسة أبي تمام. المرزوقي: **شرح ديوان الحماسة**، ج٣، ص١٢٢٠ (الحماسية ٤٥٥). وقد اختلف في نسبته، فقيل هو للصمة بن عبدالله القشيري، وقيل هو لعبدالله بن الدمينة، وقيل هو لغيرهما.

(٢) في رواية الأصمعي للقصيدة (وهي من تسعة وثلاثين بيتًا، آخرها البيت المستشهد به) أن علقمة قالها في مدح الحارث بن جبلة بن أبي شمر الغساني، وكان أسر أخاه شاسًا، فرحل إليه يطلب فكه. **ديوان علقمة بن عبدة الفحل** (بشرح الأعلم الشمنتري) تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب (حلب: دار الكتاب العربي، ط١، ١٣٨٩/ ١٩٦٩)، ص٤٨. ويقال إن علقمة أنشد هذه القصيدة جبلةَ بن الأيهم بمحضر النابغة الذبياني وحسان بن ثابت، ويقال أيضًا إن الذي أنشدها عمرو بن الحارث الأعرج.

(٣) **صحيح البخاري**، «كتاب الأدب»، الحديثان٦٠٢٧-٦٠٢٨، ص١٠٥٣؛ **صحيح مسلم**، «كتاب البر والصلة والآداب»، الحديث٢٦٢٧، ص١٠١٤؛ **سُنَنُ أبي دَاوُد**، «كتاب الأدب»، الحديث٥١٣١، ص٨٠١. واللفظ للبخاري.

(٤) هو أبو علي محمد بن علي بن رزين بن ربيعة الخزاعي، ولد بالكوفة سنة ١٤٨/ ٧٦٥. لقبته الداية بدِعبل، لدعابة كانت فيه؛ أرادت «ذعبلاً»، فقلبت الذال دالاً. شبّ دِعبل في بيت اختص =

شَـفِيعَكَ فَاشْـكُرْ فِي الحَـوَائِجِ إِنَّـهُ   يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ(١)

ومن الشواهد لذلك نكتةٌ تاريخية قلَّ مَنْ يتفطن لها، وهو ما وقع في ظهير الخليفة القادر بالله الذي أصدره للسلطان يمين الدولة محمود الغزنوي بولاية خراسان، فقد جاء فيه: «وليناك كورةَ خراسان، ولقبناك يمين الدولة بشفاعة أبي حامد الإسفراييني.»(٢)

والمرادُ بالشفاعة الثابتة لرسول الله شفاعتُه يومَ القيامة للناس عند الله تعالى لدفع ما يلاقونه من العذاب. وإذ قد أراد الله تعالَى إكمالَ الفضائل لرسوله محمد ﷺ، كان من جملة ما أعطاه أن أعطاه فضيلةَ الشفاعة وسماها بالمقام المحمود فقال تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء:٧٩]، تكميلاً لفضائله في الآخرة، على حسب ما له من السؤدد والقبول عند الله تعالى. فقد أعطى أهلَ السيادة الدنيوية

= بالشعر؛ فجده رزين شاعر، وأبوه علي كان من شعراء عصره، وعمه عبدالله بن رزين أحد الشعراء، وابن عمه محمد بن عبدالله (الملقب بأبي الشيص). شاعر له ديوان، وأخواه علي أبو الحسن ورزين من الشعراء المشهورين. وعن هؤلاء جميعًا أخذ دعبل، ومنهم تعلم؛ فتلقف أبجدية الشعر وأصوله، وفهم معانيه وغاص في بحوره، وحفظ الكثير من الأبيات والقصائد. خرج من الكوفة إلى الحجاز مع أخيه رزين، وإلى الري وخراسان مع أخيه علي. رافق مسلم بن الوليد الشاعر المتصرف في فنون القول ذا الأسلوب الحسن، ليأخذ الأدب عنه ويستقي من فنون الشعر عنده، حيث كان ابن الوليد - كما قيل عنه - أول من قال الشعر المعروف بالبديع، وتبعه فيه أبو تمام وغيره. رحل دعبل إلى بغداد واستقر بها، وكان شاعرًا هَجَّاءً، متشيعًا، غير هياب، حتى إنه هجا الرشيدَ والمأمون والمعتصم والواثق! وكان صديقًا للبحتري، وصنف كتابًا في طبقات الشعراء. تُوُفِّيَ سنة ٢٤٦/ ٨٦٠.

(١) لهذا البيت قصةٌ في العلاقات الأدبية بين الشعراء رواها هارون بن عبدالله المهلبي، وذكرها الأصفهاني في أخبار أبي تمام، فانظرها في: الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد ابن الهيثم القرشي الأموي: **الأغاني**، تحقيق قصي الحسين (بيروت: منشورات دار ومكتبة الهلال، ط١، ١٤٢٢/ ٢٠٠٢)، ج٦/ ١٦، ص٢٦٦-٢٦٧.

(٢) تعذر علينا توثيق هذا الظهير، ولعل قارئًا خبيرًا بوثائق التاريخ يهدينا إليه.

استدراك: ورد هذا النص في «شرح المقاصد في علم الكلام» للتفتازاني، ج٢/ ص٢٣٩، وأورده ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير ٣/ ١٥ طبعة الدار التونسية.

الزائلة خصلةَ الشفاعة الزائلة، وأعْطى صاحبَ السيادة الحقة الدائمة الشفاعةَ الصادقة في دار الخلود، وخصه بها كما خصه بفضائلَ لم يشاركه فيها أحد.

فقد روى مالك في الموطأ والبخاري ومسلم في صحيحيهما عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مسجدًا وطهورًا، وأُحِلت لِيَ الغنائم، وأُعطيتُ الشفاعةَ، وكان النبيُّ يُبعثُ إلى قومه خاصة وبُعِثْتُ إلى الناس عامة».(١)

وفي صحيحَيْ البخاري ومسلم عن أنس بن مالك وأبي هريرة وحذيفة، قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد، وتدنو الشمس من رؤوس الخلائق. فيبلغ الناس من الكرب والغم ما لا يطيقون، فيهتمون لذلك، فيُلهمون فيقولون: لو استشفعنا إلَى ربنا حتى يريحنا من مكاننا، ثم ذكر أنهم يأتون آدم ثم نوحًا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى (فكلٌّ يعتذر)، وأن عيسى يقول: ائتوا محمدًا عبدًا قد غُفرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال: فيأتوني فأستأذن على ربّي فيأذن لي فإذا رأيته وقعت ساجدًا فيدعني ما شاء الله ثم يقول: يا محمد ارفع رأسك، قُلْ تُسمع، وسَلْ تُعْطَ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فأرفع رأسي فأحمد ربّي بتحميد يعلمنيه ربّي، ثم أشفع فيحد لي حدًّا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود فأقع ساجداً».(٢)

---

(١) لَم أجده في الموطأ برواياته الثمانية، فيبدو أن الإحالة على مالك والموطأ زلة قلم، أو لعله في نسخة ابن بشكوال من الموطأ التي سيأتِي ذكرُها في مقال المصنف عن الموطأ ونشأة علم الحديث. **صحيح البخاري**، «كتاب التيمم»، الحديث٣٣٥، ص٥٨؛ «كتاب المساجد»، الحديث٤٣٨، ص٧٦؛ **صحيح مسلم**، «كتاب المساجد ومواضع الصلاة»، الحديث٥٢١، ص١٩٤.

(٢) أورد المصنف الحديث مختصرًا، فانظره في: **صحيح البخاري**، «كتاب التفسير»، الحديث٤٤٧٦، ص٧٦٠؛ «كتاب الرقاق»، الحديث٦٥٦٥، ص١١٣٥-١١٣٦؛ «كتاب التوحيد»، الحديث٧٤١٠، ص١٢٧٤-١٢٧٥ والحديث٧٥١٠، ص١٢٩٣-١٢٩٤؛ **صحيح مسلم**، «كتاب الإيمان»، الحديث١٩٣، ص٩٤-٩٥؛ **سنن الترمذي**، «أبواب صفة القيامة»، الحديث ٢٤٣٤، ص٥٧٨-٥٧٩.

ووصف مثل ما وصف في المرة الأولى: «ثم أشفع فيحد لِي حدًّا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة: قال: فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة: فأقول ما بقي في النار إلا ما حبسه القرآن، أي وجب عليه الخلود».(١) وزاد مسلم عن حذيفة: «ويقوم محمد فيؤذن له، وتُرسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبَتَيْ الصراط يمينًا وشمالاً، فيمر أولُكم كالبرق... ثم كمر الريح، ثم كمر الطير وشد الرحال، تجري بهم أعمالُهم، ونبيُّكم قائم على الصراط يقول: رب سَلِّمْ سَلِّمْ، حتى تعجِزَ أعمالُ العباد حتى يجيء الرجلُ فلا يستطيع السيرَ إلا زحفًا... وفي حافَّتَيْ الصراط كلاليبُ معلقة مأمورة بأخذ من أُمِرت به، فمخدوشٌ ناجٍ ومكدوسٌ في النار.»(٢)

وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة وجابر بن عبدالله وأنس بن مالك - يزيد بعضُهم على بعض - عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لكل نبي دعوة مستجابة، فأُريد أن أختبئ دعوتِي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلةٌ مَنْ مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً».(٣) وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قيل: «يا رسول الله! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟» قال رسول الله: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه [أو من نفسه]».(٤) وفي

---

(١) البخاري ومسلم، الأحاديث نفسها المخرجة في الحاشية السابقة، واللفظ لمسلم.

(٢) **صحيح مسلم**، «كتاب الإيمان»، الحديث١٩٥، ص٩٧-٩٨.

(٣) جمع المصنف بين ألفاظ عدة روايات للحديث، وأقربها إلى ما ذكره ما رواه مسلم: «حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة وأبو كريب -واللفظ لأبي كريب- قالا: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته. وإني أريد أن أختبئ دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلةٌ -إن شاء الله- مَنْ مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً». **صحيح مسلم**، «كتاب الإيمان»، الحديث١٩٩، ص٩٩، وانظر رواياتٍ أخر للحديث في الباب نفسه (باب اختباء النبي ﷺ دعوة شفاعته لأمته)؛ **صحيح البخاري**، «كتاب الدعوات»، الحديثان ٦٣٠٤-٦٣٠٥، ص١٠٩٦ (بدون: «فتعجل كل نبي دعوته»، وبدون: «فهي نائلةٌ - إن شاء الله - مَنْ مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا»).

(٤) **صحيح البخاري**، «كتاب العلم»، الحديث٩٩، ص٢٢؛ وكذلك «كتاب الرقاق»، الحديث٦٥٧٠، ص١١٣٦ (وفيه: «قلت»، بدل «قيل»).

صحيح مسلم عن أنس: «قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة».»[(١)] وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله عن رسول الله ﷺ: «إن الله يخرج قومًا من النار بالشفاعة»،[(٢)] يريد بشفاعة محمد؛ لأن التعريف للعهد. وروى أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد بن حنبل بأسانيدهم عن أنس بن مالك وجابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»، قال الترمذي: هو «حديث حسن صحيح غريب.»[(٣)] وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله: أن مقام محمد المحمود هو الذي يخرج الله به من يخرج من النار.[(٤)]

فشفاعةُ رسول الله يوم القيامة أمرٌ ثابت على الجملة بأدلة القرآن، قال الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ [سبأ:٢٣]، وثبوتها للنبي ﷺ بأدلة من القرآن، قال تعالَى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء:٧٩]، وبما ثبت في الصحيح ورويناه آنفاً.

أنواع الشفاعة ومكانة الرسول ﷺ منها:

والشفاعات على ما حققه أئمتنا خمسة أقسام:

الأول: الشفاعةُ إلى الله في إراحة الأمم من هول الموقف بأن يُعَجِّل حسابَهم. وتُسمى بالشفاعة العظمى؛ لأنَّها أعمُّ أقسام الشفاعات، وهي من خصائص محمد

---

(١) صحيح مسلم، «كتاب الإيمان»، الحديث١٩٦، ص٩٨.

(٢) صحيح مسلم، «كتاب الإيمان»، الحديث١٩١، ص٩٢.

(٣) قال الترمذي في تعليقه على رواية أنس (٢٤٣٥): «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وفي الباب عن جابر.» وقال تعليقًا على رواية جابر بن عبدالله (٢٤٣٦) من طريق جعفر ابن محمد عن أبيه عن جابر: «هذا حديث غريب من هذا الوجه يُستغرب من حديث جعفر بن محمد.» سنن الترمذي، «أبواب صفة القيامة»، ص٥٧٩؛ سُنَنُ أبي دَاوُد، «كتاب السنة» الحديث٤٧٣٩، ص٧٤٦؛ سنن ابن ماجه، «كتاب الزهد»، الحديث٤٣١٠، ص٦٢٩.

(٤) صحيح مسلم، «كتاب الإيمان»، الحديث٣٢٠، ص٩٣-٩٤. وسيأتي ذكر الحديث الذي ورد فيه هذا التفسير بعد قليل.

ﷺ بصريح حديث البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان.

الثاني: الشفاعة لإدخال قوم من المؤمنين الجنة بغير حساب. وهذه أيضًا من خصائص النبيء ﷺ، كما في حديث أبي هريرة في صحيح مسلم.

الثالث: الشفاعة في قوم استوجبوا النار، فيعتقهم الله منها.

الرابع: الشفاعة لإخراج المؤمنين من النار بعد أن يعذبوا، على ما اقتضاه حديثُ أنس وأبي هريرة وحذيفة في الصحيحين.

الخامس: الشفاعة لرفع الدرجات في الجنة.(1)

وإطلاقُ اسم الشفاعة على القسم الأخير مجازٌ وتسامح، وإنما هي وساطةٌ ووسيلة لزيادة النفع. وفي كلام عياض ما يدل على أن هذا القسم ليس من خصائص محمد ﷺ؛ إذ ورد في صحيح الآثار ما ظاهرُه أن الأنبياء والملائكة يشفعون هذه الشفاعة، وبذلك جزم عياض في إكمال مسلم.(2)

وأما بقية الأقسام، فاختصاصُ رسول الله بالقسم الأول -الذي هو الشفاعة العظمى- وبالقسم الثاني وبالقسم الثالث ثبت بصحيح البخاري التي لا معارَض لها من مثلها. وأما القسم الرابع، فقد ورد في بعض صحيح الآثار أن الملائكة والأنبياء يشفعون. وبه جزم عياض في الإكمال أيضاً.(3) ولم يجب عياض عما تضمنه حديثُ الموطأ والصحيحين من اختصاص رسول الله بالشفاعة على الإطلاق.

وأرى أن يكونَ الجوابُ على مجاراة ما جزم به عياض رحمه الله، أن يكون محملُ حديث الموطأ والصحيحين: «أُعْطِيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي...»، فذكر

(1) راجع في هذه المعاني: اليحصبي: **إكمال المعلم**، ج1، ص566. وقارن بما ذكره في كتاب **الشفا**، ص136.

(2) اليحصبي: **إكمال المعلم**، ج1، ص567. هذا وأصل هذا التفصيل لأقسام الشفاعة هو ما قرره الإمام أبو الحسن الأشعري، فانظره في: ابن فورك: **مجرد مقالات الأشعري**، ص167-170.

(3) اليحصبي: **إكمال المعلم**، ج1، ص566.

منها: «وأعطيت الشفاعة»: إما الشفاعةَ العظمى، فيكون التعريفُ للعهد أو للكمال. وإما على جنس الشفاعة بقيد تحقق إجابة شفاعته، لما ورد في حديث الصحيحين عن جابر وأنس وأبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لكل نبي دعوةٌ مستجابة، فأردتُ أن أختبئَ دعوتي لأمتي يوم القيامة».[1]

وأما حديثُ «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»، فهو يقتضي تخصيصَ الشفاعة بكونها لأهل الكبائر من المسلمين. فيتعين حملُ هذا الحديث على أن المراد بالشفاعة فيه القسمان الثالث والرابع، وهما اللذان يتحقق فيهما معنى الشفاعة بمعناه اللغوي الأتم؛ لأنها شفاعةٌ تتحقق بها النجاةُ من أثر الجناية نجاةً مستمرة. بخلاف الخامس؛ إذ إطلاقُ الشفاعة عليه مجاز، كما علمته.

والتحقيقُ عندي في شأن هذه الشفاعات أن ما ورد من الآثار مِمَّا ظاهرُه إثباتُ شفاعة النبيين وصالحي المؤمنين والملائكة أنها شفاعةٌ مجازية؛ لأنها إما دعاء، كقول النبيين على الصراط: «اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ»،[2] كما في حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري في الصحيحين.

وإما شهادةٌ وتعريضٌ بالتشفع، كقول المؤمنين الناجين في شأن المؤمنين الذين أُدْخِلوا النار: «ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون. فيقول الله لهم: أخرجوا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) جاءت هذه العبارة في حديث طويل عن أبي هريرة أوله: «أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟»، ثم جاء فيه: «وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون أنت ربنا، فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ، وفي جهنم كلاليب، مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان؟»، إلى آخر الحديث. **صحيح البخاري**، «كتاب الأذان»، الحديث٨٠٦، ص١٣٠-١٣١؛ «كتاب الرقاق»، الحديث٦٥٧٣، ص١١٣٧-١١٣٨؛ «كتاب التوحيد»، الحديث٧٤٣٧، ص١٢٧٩-١٢٧٨؛ **صحيح مسلم**، «كتاب الإيمان»، الحديث١٩٥، ص٩٧-٩٨. وقد جاءت العبارة محل الشاهد بلفظ: «رب! سلم سلم».

من عرفتُم».[١] فهذا إذنٌ من الله لهم بعد شهادتهم، كما اقتضاه حديثُ أبي سعيد الخدري في صحيح مسلم. وإما تلقي إذن من الله تعالى، كما في حديث أبي هريرة وأبي سعيد في الصحيحين. وعليه فما وقع في بعض روايات حديث أبي سعيد في صحيح مسلم: «فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة وشفع النبيون»،[٢] هو من باب المجاز، أي: وُسطت الملائكة، واستجيب دعاءُ النبيين بالسلامة، وقُبلت شهادةُ المؤمنين لأقوامهم بالإيمان والأعمال الصالحة.

وعليه فحملُ حديثِ الموطأ والصحيحين المصرح بأنه أعطي الشفاعة ولم يُعطها أحدٌ قبله، أن يكونَ على ظاهره. ويدل لذلك أن حديثَ الصحيحين المرويَّ عن أنس وأبي هريرة وحذيفة صريحٌ في أن القسم الرابع من الشفاعات من خصائص النبي ﷺ لتفصِّي أفضل بقية الرسل منها.

وقد أنكر بعضَ أقسام الشفاعة طوائفُ من المبتدعة في الدين، وأولُ مَنْ أنكر الشفاعةَ الخوارجُ في عصر الصحابة. ففي صحيح مسلم عن يزيد الفقير قال:

«كنتُ قد شغفني رأيٌ من رأي الخوارج، فخرجنا في عِصابة ذوي عدد، نريد أن نَحُج ثم نَخْرُجَ على الناس.[٣] فمررنا على المدينة، فإذا جابرُ بن عبدالله جالس إلى سارية يحدث القوم عن رسول الله ﷺ. قال: فإذا هو قد ذكر الجهنميين [أي أهل المعاصي الذين يخرجون من النار فيسميهم أهل الجنة الجهنميين، كما ورد في حديث عمران بن حُصَين وأنس بن مالك].[٤] قال (يزيد): فقلت له: يا صاحبَ رسول

(١) **صحيح مسلم**، «كتاب الإيمان»، الحديث١٨٣، ص٨٩.

(٢) انظر ذلك في الحديث نفسه، ص٩٠.

(٣) أي لبث دعوتهم ونشر أفكارهم.

(٤) ولفظ الحديث في رواية أنس: «يخرج قوم من النار بعدما مَسَّهم منها سَفْعٌ فيدخلون الجنة، فيسميهم أهلُ الجنة الجهنميين». **صحيح البخاري**، «كتاب الرقاق»، الحديث٦٥٥٩، ص١١٣٥؛ «كتاب التوحيد»، الحديث٧٤٥٠، ص١٢٨٤، ولفظه: «لَيُصيبَنَّ أقوامًا سَفْعٌ من النار بذنوب أصابوها عقوبة، ثم يُدخلهم الله الجنة بفضل رحمته، يقال لهم: الجهنميون». وفي رواية عمران =

الله، ما هذا الذي تحدثون؟ والله يقول: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران:١٩٢]، و﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠]. فما هذا الذي تقولون؟ قال [أي زيد]: فقال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: فهل سمعتَ بمقام محمد عليه السلام - (يعني الذي يبعثه الله فيه)؟ [يعني قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء:٧٩]]، قلت: نعم، قال: فإنه مقام محمد ﷺ المحمود الذي يُخرج به مَنْ يُخرِج. قال: ثم نعت وضع الصراط ومرَّ الناس عليه...»[(١)]

وإن إنكار الشفاعة مبنيٌّ على أصلهم؛ فإنهم يقولون بأن مرتكب الكبيرة مستوجبٌ الخلودَ في النار، إلا أن يتوب. فإن كان قد تاب، فالشفاعةُ محال؛ لأنها لا تفيد المشفوعَ فيه شيئًا لوجوب خلوده في النار. وأدلتُهم في ذلك ظواهرُ من القرآن تقتضي خلودَ مرتكِبِ الكبيرة والإيمان إلى أنه كافر.[(٢)]

وتلك الأدلةُ عندهم أقامت لهم أصلاً قاطعًا من أصول الاعتقاد في نظرهم، واستدلوا على بطلان الشفاعة بالخصوص بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة:٤٨]، وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٤]، فلذلك تأولوا الآيات التي تقتضي وجود الشفاعة لمنافاتها للأصل القاطع.

= ابن الحصين: «يخرج قومٌ من النار بشفاعة محمَّد، فيدخلون الجنة ويسمون الجهنَّمِيِّين». **سُنَنُ أبي دَاوُد**، «كتاب السنة»، الحديث ٤٧٤٠، ص٧٤٦. وانظر كذلك **سنن ابن ماجه**، «كتاب الزهد»، الحديث ٤٣١٥، ص ٦٣٠، ولفظه عنده عن عمران بن الْحُصَيْنِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيَخْرُجَنَّ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَتِي، يُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ».

(١) **صحيح مسلم**، «كتاب الإيمان»، الحديث ٣٢٠، ص٩٣-٩٤. ما بين حاصرتين زيادة من المصنف.

(٢) انظر في ذلك: الأشعري، الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل: **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، نشرة بعناية أحمد جاد (القاهرة: دار الحديث، ١٤٣٠/ ٢٠٠٩)، ص٦٦-٧٨.

وقد كان حديث جابر هذا من أعظم الحجج على بطلان مقالة الخوارج. ولذلك لَـمَّا حدَّث به عصابةَ يزيد الفقير التي عزمت على الخروج على الناس تبعًا للخوارج، علمت تلك العصابةُ صدقَ ذلك الصحابي الشيخ. قال يزيد الفقير: «فرجعنا. فلا والله! ما خرج منا غير رجل واحد.»

ووافقهم المعتزلةُ على ذلك مع اختلاف الدليل؛ وذلك أن المعتزلة يقولون بخلود مرتكبِ الكبيرة في النار إذا لم يتب، ولا يجوِّزون المغفرةَ له؛ لأن الإحسانَ للمسيء والإساءةَ للمحسن قبيحٌ يستحيل صدورُه من الله تعالى، وتأولوا ما ورد في الشفاعة بأنها شفاعةٌ لرفع الدرجات في الجنة.

ومذهبُنا -معاشرَ أهل السنة- أن الشفاعةَ ثابتة؛ وسبيلُنا في ذلك أنها جائزة، وأنها ليست بقبيح، وأن الصفح عن بعض عقاب المذنب ليس بقبيح. وأدلتُنا السمعيةُ واضحةٌ من الكتاب والسنة، ومحملُ آيات نفي الشفاعة على الكفار بقرينة قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر:١٨]؛ لأن اصطلاح القرآن في الظلم أنه الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]، وقال: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء:٢٩]، ونظائرُ ذلك كثيرة. واعلم أن الشفاعةَ التي ينكرها هؤلاء هي الأقسامُ الثاني والرابع، ولم ينكروا الشفاعةَ للإراحة من هَوْلِ الموقف ولا الشفاعةَ من رفع الدرجات، كما حققه عياض رحمه الله في الإكمال.[1]

(١) اليحصبي: **إكمال المعلم**، ج١، ص٤٢٦-٤٢٧ و٤٣٨. وقارن بما قاله ابن العربي: **المسالك**، ج٦، ص٣٠٢-٣٠٣.